مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 5 السنة: 2020
ص: 110 - 127 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

التفكيكية :إتيمولوجيا المصطلح وأركيولوجيا المفهوم بحث في المحاضن الفلسفية والمقولات المنهجية

Deconstruction, Term Etymology and Concept Archeology, Research in the Philosophical Incubators and the Methodological Categories.

د.محي الدين بلال[1]، أ.خلايفي رشيد[2] *
Bilal mahiddine[1] . khelaifi rachid[2]
[1]جامعة العربي التبسي – الجزائر university larbi tebessi – Algeria
[2]جامعة عباس لغرور– الجزائر abbés laghrour –Algeria university
belal.mahiddine@univ-tebessa.dz[1]
Rachi.khelaifi@gmail.com[2]

تاريخ الإرسال:2020/04/16	تاريخ القبول:2020/08/24	تاريخ النشر: 2020/12/25

ملخص البحث

تجلي هذه الورقة البحثية الأصول الفلسفية للتفكيكية لمؤسسها(جاك دريدا)،والتي حاول من خلالها إعادة قراءة الفلسفة الغربية، وذلك بإجلاء منطق التعالق المرجعي بين المقولات الناظمة لعقد التصور النظري لتلك النظرية وبين الخلفيات الفلسفية المؤسسة لها. وقد شكلت فلسفات الشك والارتياب إطارا فكريا مناسبا بنى عليه جاك دريدا تصوره انطلاقا من نقد الفكر الميتافيزيقي الغربي القائم على مركزية العقل فتأثر دريدا بالفلسفة النيتشوية التي أعلنت أفول مركزية اللوغوس وموت الإله لتجسد مقولة الكتابة، كما أنه استفاد من فلسفة هيدغر آخذا منه مقولتي التدمير والأثر التي استثمرها فيما بعد ليؤسس من خلالها مصطلح التفكيك، وشكلت فلسفة فرويد التي قوضت سلطة المبدأ الأرخوني(الأبوي) خلفية لأفكار دريدا . وكان منهجنا في الدراسة يستند إلى المقاربة التأولية مع المواءمة بآليات الوصف والتحليل، وتوصلنا فيها إلى نتائج من بينها أنه لا يمكن ضبط مفهوم واضح المعالم لمصطلح التفكيك وهي الحقيقة التي صرح بها مؤسسه دريدا .

الكلمات المفتاحية: جاك دريدا، مابعد حداثة، تفكيك، كتابة، اختلاف، أثر.

* محي الدين بلال belal.mahiddine@univ-tebessa.dz

Abstract:
This paper demonstrates the philosophical origins of the deconstruction of its founder (Jacques Derrida), through which he attempted to re-read Western philosophy, by clearing the logic of the reference correlation between the statements that regulate the theoretical conception of that theory and the philosophical backgrounds found for it. The philosophies of suspicion and suspicion formed an appropriate intellectual framework upon which Jacques Derrida built his conception based on criticism of Western metaphysical thought based on the centrality of mind. Derrida was influenced by Nietzschean philosophy, which declared the decline of Logos' centrality and the death of God, to embody the category of writing. He also benefited from Heidegger's philosophy, taking from him the notion of destruction and effect, which he later exploited to establish t the term deconstruction.
Freud's philosophy, which undermined the authority of the Aragonese (patriarchal) principle, formed the background to Derrida's ideas. Our approach in the study was based on the prescriptive approach with alignment with mechanisms of description and analysis. We reached conclusions, including that it is not possible to control a clearly defined concept of the term deconstruction, a fact stated by its founder Derrida.
Keywords: Jacques Derrida, Postmodernism, Deconstruction, Writing, Difference, Impact.

أولا: تمهيد

يكشف المتتبع لحركة الفكر الغربي بصفة عامة ونقده بصفة خاصة صراعا أزليا في البحث عن الحقيقة، فكلما نصب حقيقة شكك فيها ليمهد إلى بلورة حقيقة جديدة، وهو بحث سبيله التأمل فيما تواجهه النفس الإنسانية في هذا العالم من فك للألغاز ومستغلقات الحياة.

هذا الصراع قائم على ثنائيات (الإله والإنسان، المقدس والمدنس، الحضور والغياب، النسبي والمطلق، الشك واليقين، الميثوس واللوغوس، المركز والهامش)، فخطاباته إشكالية قائمة على التعدد ورفض الأحادية، ولهذا نجد أن النظريات والمناهج النقدية الغربية نسبية وخاضعة لتصورات فلسفية وإيديولوجية متعددة، ولا سبيل لفهمها إلا الإلمام بمسيرة تطور الفكر الغربي وما صاحبه من تحولات معرفية عبر القرون الطوال أسست لها مدارس فلسفية عدة من مرحلة ما قبل أفلاطون إلى الفلسفات المعاصرة، إن الناقد لا يستطيع دخول تخوم هذه المناهج ما لم يدرك أهمية

المحاضن الفلسفية في بناء الأجهزة المفاهيمية والآليات الإجرائية التي اتكأت عليها إذ لا «عداوة بين المعرفة العلمية والمعرفة الميتافيزيقية؛ إذ الثانية تضع الأولى أمام المهام المكلفة بها. فالعلم بدون الفلسفة يجهل ما يتحدث عنه، والفلسفة بدون دراسة منهجية للظواهر لن تصل سوى إلى حقائق صورية أو شكلية»[1]

تعتبر التفكيكية استراتيجية صاحبت التطور الفكري والفلسفي الغربي في مراحله المتقدمة لتقدم لنا مساءلة نقدية قوضت ما وقع فيه نقاد المناهج السياقية والنصانية من أسر للقارئ في قطبي المؤلف والنص وتجاوز صنمية القراءة المغلقة والارتماء نحو فتح حدود العتمات المظلمة في زوايا الفكر والإبداع. والإشكال الذي يمكن إثارته ماهي الأصول الايتيمولوجية لمصطلح التفكيك وماهي الأصول الفلسفية والمحاضن الفكرية التي تبلور من خلالها وماهي أبرز المقولات التي شكلت العقد الناظم لشبكة مفاهيمه ؟

أولا: التفكيك في الثقافة الغربية اتيمولوجيا المصطلح وأركيولوجيا المفهوم :

يحظى المصطلح باهتمام ملحوظ من قبل الباحثين على اختلاف بيئاتهم وثقافتهم فالمصطلحات تختزل المفاهيم و التصورات التي تنبني عليها العلوم، إذ بها يقاس تطور العملية النقدية «لأن مفاتيح العلوم مصطلحاتها ومصطلحات العلوم ثمارها القصوى، فهي مجمع حقائقها المعرفية وعنوان ما به يتميز كل واحدمنها عما سواه، وليس من مسلك يتوسل به الانسان إلى منطق العلم غير ألفاظه الاصطلاحية حتى لكأنها تقوم من كل علم مقام جهاز من الدوال ليس مدلولاته إلا محاور العلم ذاته ومضامين قدره من يقين المعارف وحقيق الأقوال»[2].

ولما كان تحديد المصطلحات مسألة ضرورية لضبط و تنظيم العملية الفكرية و التحليلية التفسيرية وتأطير ممارسات الفكر الاجتماعي في سياق منهجي بعيدا عن الفوضى و الشتات الذهني، فإنه لا يمكن الحديث عن ارتقاء ملحوظ ما إلى الدرجة الاصطلاحية، حتى يتخطى معيارية اللغة و يشيد وجوده في كنف اللغة الواصفة التي توصف بكفاءتها التجريدية وقدرتها على تشكيل عوالم مفهومية مستقلة عن المنطلقات الدلالية الأولى للكلمة التي أصبحت مصطلحا. إن المصطلح أداة تواصل لا محيد عنها شأنها « شأن الأعمدة في البناء ما لم تستوف موضعها، فإن البناء مآله إلى الانهيار »[3].

تعود كلمة تفكيك (déconstruire) فيما ذكره دريدا إلى مصطلح التدمير(déstruction) الذي صاغه هيدغر «بمعنى تحليل بنية ما عن طريق نشرها وبسطها على طاولة التشريح، مثلما كان يفكر في كلمة (Abbau) الألمانية أي (démontage) الفرنسية التي استعملها فرويد للدلالة على نوع من التركيب بالمقلوب» [4].أي تفكيك وحدة ثابتة إلى عناصرها المشكلة لها لمعرفة بنيتها ومراقبة وظيفتها .

ومن الناحية الاصطلاحية يسعى التفكيك كفلسفة استراتيجية إلى «فحص النصوص والموضوعات لكسر منطق الثنائيات الميتافيزيقي :داخل/خارج، دال/مدلول، واقع/ مثال...لإقرار حقيقة المتردد اللايقيني (indécidable)في عبارة "لا(هذا) ..ولا (ذاك) .." فما وجده جيل دولوز في النسق الأفلاطوني :عنصر التشابه أو الإيهام الكائن بين الأصل والنسخة :سيجد جاك دريدا في النسق الأفلاطوني مفهوم الترياق pharmakon والذي يعني "لا الداء ولا الدواء"» [5]. فإذا كان ديدن هيدغر استخدام فكرة الهدم في تفكيك النسق الفلسفي الإغريقي، فإن رؤية دريدا مخالفة لذلك فالهدم عنده يتضمن أيضا البناء (البناء بطريقة مغايرة)، «فالتفكيك يقتضي التعدد والتشتت بإزاحة مركزية décentrement توزع المراكز »[6].

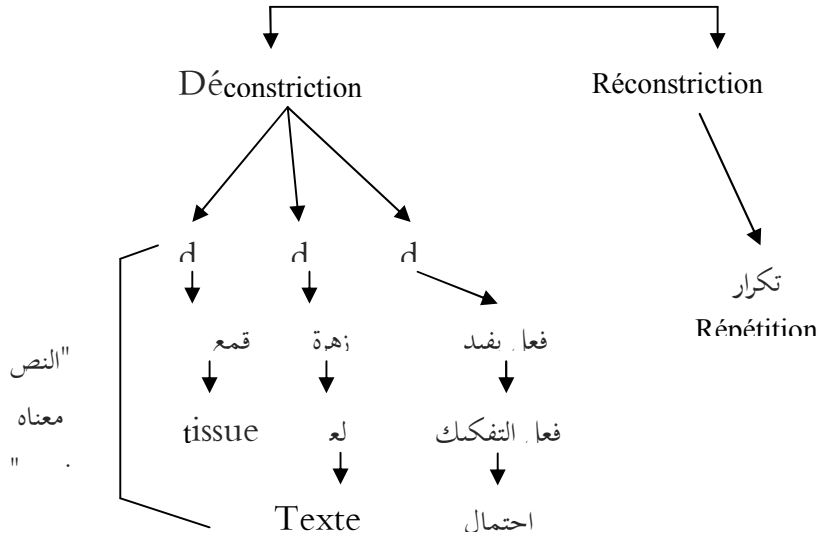

يشرح الناقد محمد شوقي الزين هذا المخطط بأن «البادئة(Dé) من Dé- consrtuction هي "نسيج النص" و"لعبة كاحتمال" لعبة المعنى والتعبير والإشارة وتشابكها entrelacement .هي بالمعنى الجيولوجي للكلمة، أن هذه الطبقات هي طبقات مترسبة ينبغي نحتها وإزاحتها وهي، بالمعنى الاستراتيجي للكلمة، أن هذه الطبقات منسوجة ومتشابكة بحيث يتعذر الكشف عن "لحمة النسيج" و" السلسلة" .فالنص هو إذن نسيج مركب من إشارات وتعبيرات ودلالات متداخلة تستدعي التفكيك والعزل لفحص بنياتها وجذورها المتضاربة»[7]

إن التفكيك بحث لا متناه في استنطاق المسكوت عنه، فهو «خلخلة لكل المعاني التي تستمد منشأها من اللوغوس، وبالخصوص معنى الحقيقة »[8]. والتفكيك انطلاقا من هذا التصور كسر للمدلولات الثابتة عن طريق اللعب الحر للكلمات إنه «يقوض النص بأن يبحث في داخله ما لم يقله بشكل صريح واضح وهو يعارض منطق النص الواضح المعلن وادعاءاته الظاهرة بالمنطق الكامن فيه، كما أنه يبحث في النقطة التي يتجاوز فيها النص القوانين والمعايير التي وضعها لنفسه، فهو عملية تعرية للنص، وكشف أو هتك لكل أسراره، وتقطيع أوصاله، وصولا إلى أساسه الذي يستند إليه، فيتضح هذا الأساس وضعفه ونسبيته وسيرورته، فتسقط عنه قداسته وزعمه بانه ثابت، متجاوز »[9].والتفكيك بذلك فك لشفرات النصوص وإعادة لتشكيلها، فتغدو هذه النصوص عرضة للتشظي والانشطار ويبقى المعنى فيها مرجأ .

عبّر دريدا على أن التفكيك ليس منهجا ولا يمكن ان يتحول إلى منهج للقراءة والتأويل، فالتفكيك بذلك «لا يمكن أن يختزل إلى أدواتية منهجية أو إلى مجموعة من القواعد و الإجراءات القابلة للنقل؛ مثلما لا يكفي القول إن كل "حدث" تفكيكي يظل فريدا أو متوقعا، بأقرب ما يمكن من شيء أو لغة أو توقيع، بل يجب أن نحدد أيضا أن التفكيك ليس حتى فعلا أو عملية »[10]. ويرى دريدا أن كلمة تفكيك كمفهوم تحديدي قابلة بدورها للتفكيك وهوما ذكره قائلا « إن صعوبة تحديد مفردة وبالتالي ترجمتها، إنما تنبع من كون جميع المحمولات وجميع المفهومات التحديدية وجميع الدلالات المعجمية، وحتى التمفصلات النحوية التي تبدو في لحظة معينة وهي تمنح نفسها لهذا التحديد وهذه الترجمة، خاضعة هي الأخرى للتفكيك وقابلة له، مباشرة أو مداورة الخ.. وهذا يصح على كلمة "التفكيك" وعلى وحدتها مثلما على كل كلمة »[11].يتبين من خلال ذلك أن كلمة تفكيك لا تستمد ماهيتها من سياق معين، كما لا تسمح

بأن تحددها كلمات بعينها وهو ما يوصلنا إلى إثارة تساؤل كيف ستحدد استراتيجية التفكيك انطلاقا من هذا المعطى، وللإجابة عن ذلك فالتفكيك كاستراتيجية يمثل قراءة الفكر الغر بي « قراءة شاملة وإعادة النظر في المفاهيم التي تأسس عليها كخطاب ميتافيزيقي [مثل الحقيقة والعقل والهوية والحضور والأصل الخ..] .وهي عبارة عن نقد للتمركز العرقي ethnocentrisme الغربي المدعم من طرف تمركزات أخرى، مثل تمركز العقل logocentrisme وتمركز الصوت phono-centrisme ....وقد اعتبر دريدا بان تفكيك هذه التمركزات "هو تفكيك للمبدأ الأنطو-ثيولوجي للميتافيزيقا وللسؤال لماذا؟ ولكل الأسئلة المتعلقة باللحظة الأنطو- موسوعية onto-encyclopédique »[12].

استنادا إلى هذه التوضيحات حول ماهية مصطلح التفكيك خاصة عند جاك دريدا يتبين أنه مصطلح ثري وغني بالدلالات ويصعب على الدارس القبض على حدوده، ويوصلنا هذا إلى نتيجة مفادها أن التفكيك إذا قدمنا له حدودا ومفاهيم، فإننا بهذه الطريقة ندحض ماهيته لأنه ضد فكرة التحديد مادامت الحقيقة غائبة والمعاني مؤجلة.

ثانيا: التفكيك: المحاضن الفلسفية :

بدأت مسيرة النقد الأدبي في الغرب اهتمامها بالمؤلف وبيئته ونفسيته، ومرورا إلى الاهتمام بالنص، ووصولا إلى المتلقي بصفته قطبا في العملية النقدية. على هذا الأساس تناوبت المناهج النقدية في مقاربتها للنصوص الإبداعية وكل يعمل على تصحيح الثغرات التي وقع فيها ما قبله«فما وقفت فيه المناهج السياقية من إمعان النظر في خارج النص جاءت المناهج الداخلية ولاسيما البنيوية لتصحيحه في مقاربة للنص تقصي الخارج بضروبه المتنوعة نابذة المؤلف ومتلقي النص، ومن ثم حدثت المناقلة الأوسع التي حاولت إحكام الطوق حول بنية الأدب بذاتية المتلقي»13.

وإذا كانت المناهج النصية وقبلها المناهج السياقية امتدادا للفلسفات الوضعية التجريبية التي دامت ثلاثة قرون من ق.17 إلى ق19 فإن التفكيكية اختلفت سياقات ومرجعيات ظهورها فلسفيا عن المناهج السابقة. إن ظهورها صاحب فلسفات ما بعد الحداثة التي زعزعت أركان اليقينيات والوثوقيات ورفضت كل جوهر غير قابل للتبسيط، وأخذت من الشك مبدأ أساسيا أكثر شمولية وعمقا «وقد ارتبط الاحساس بالخديعة الذي تمخض عن تجربة الإنسان مع العلم

والتكنولوجيا بإحساس جديد باستحالة المعرفة وخيّم شك فلسفي جديد على العالم شك نيتشي مقبض وفوضوي»[14]. وتمثل مرحلة ظهور التفكيكية نهاية الحكايات الكبرى بمفهوم (**ليوتار**)، وكان رد الفعل النقدي لهذه التغيرات التي أصابت مجرى الفكر الغربي هو العودة الكاملة للذات، و الارتماء في أحضانها. لكن هذه العودة لم تكن تعني عودة الثقة في قدرة الداخل أو العقل على تحقيق المعرفة، بقدر ما أصبح الشك و الارتياب ديدن نقاد ما بعد البنيوية. إنه الخروج من سجن النص و الارتماء في لا نهاية القراءات و السؤال المطروح: ماهي المرجعيات الفلسفية و الأصول المعرفية التي أسس من خلالها رواد التفكيكية أجهزتهم المفاهيمية ومقولاتهم الإجرائية؟

انبثقت التفكيكية من رحم فلسفة الشك والارتياب التي صاحبت ما ارتقى إليه الخطاب الفلسفي المعاصر من ثورة معرفية ضد الإغلاق الميتافيزيقي الذي مارسته الفلسفات الوثوقية القائمة على فكرة (الوعي، اللوغوس، الحضور، الجوهر، اليقين، المطلق،المركز...) من الفلسفة المثالية الكلاسيكية التي أسس لها أفلاطون إلى الفلسفة المثالية الحديثة التي وضع مرتكزاتها ديكارت، كانط، هيجل. ليفتح أقطابها مسارا جديدا تحت عنوان فلسفة الاختلاف كما يطلق عليها روادها جيل دولوز: الاختلاف والتكرار، وجون فرانسوا ليوتار :المختلف والصراع، ودريدا : الكتابة والاختلاف. إذ رفع كل من دريدا ودولوز وليوتار « شعار الاختلاف النيتشوي والهيدغري ضد "الطاغية " هيغل على حد تعبير كريستيان روبي باستعمالهم للمجاز أو الاستعارة Métaphore كبديل عن التصور أو المفهومConcept في دلالته الهيغلية وكل المفاهيم المنحدرة عنه والمعبرة عن الإغلاق الميتافيزيقي مثل: الشمولية، النسق، الهوية، التطابق الكونية. ضد هذه المفاهيم ارتأى رواد الاختلاف تأسيس آليات معرفية واستر اتيجيات تتمثل في "الحفريات" (فوكو) التكرار (دولوز)، التفكيك (دريدا)، المختلف(ليوتار) وتنصب هذه الاستراتيجيات أساسا على قراءة النص(الفلسفي، الفني، ...) قراءة اختراقية تخترق سمك النسيج الخطابي وتكسر النواة الصلبة التي تؤسس منطقه وتحكم نسقه وتزيح المفاهيم والدلالات التي تطبع خصوصية كل نص مقروء وتتجاوز خطاب الهوية والشمولية الذي يتضمنه النص ويدعو إليه »[15].إن ما جمع هؤلاء النقاد والفلاسفة هو كشف الزيف وهدم القناع القائم على الوهم والخرافة ؛وهم الوعي وخرافة الحقيقة، ولبيان ذلك يمكن العودة إلى أبرز المحاضن الفلسفية التي قامت عليها التفكيكية ويمكن إجمالها في:

أ– ظاهراتية هوسرل وقلب الكوجيتو الديكارتي:

إذا كانت الفلسفة الوضعية تولي اهتماما بالموضوع داحضة بذلك أي دور للذات (الوعي المدرِك) في تشكيل موضوعات (العالم المدرَك) و إذا كانت المثالية تعلي من شأن التصورات الذاتية على حساب الحقائق الموضوعية، فإن الفلسفة الظاهراتية « أتت لتعيد النظر في العلاقة القائمة بين الذات و الموضوع منادية بالعودة إلى الأشياء في ذاتها ملحّة على أن الذات المدركة تتسم بوعي قصدي إيجابي وأن الموضوع لا يعرب عن قيمته أو حقيقته إلا على نحو ما يعنيه في أفعال وعيها»[16].فمع اختلاف المناهج وتباين منطلقاتها في تفسير الظواهر فردية كانت أم اجتماعية، أدى ذلك إلى تعارض في فهم هذه الظواهر ذاتها، وبالتالي فنحن أمام إشكالية أساسية في تاريخ الفكر و العلوم الانسانية وهي إشكالية الفهم فهل نصل إلى فهم الظواهر بناء على شروط سيكولوجية؟ أم أخرى سوسيولوجية؟ وكيف نفهم هذه الظواهر؟ وهل العلوم التي تدّعي الموضوعية و التجريبية هي أصلا مؤهلة لتفسير هذه الظواهر ؟

لقد كانت هذه الاشكاليات بمثابة الدافع الذي قاد (إدموند هوسرل) edmundhusserl إلى تأسيس فينومينولوجيا « تبحث عن قاعدة أو دعامة تنبثق من خلالها أو تتأسس بموجبها أو ترى الوجود على أثرها كل ظاهرة معينة »[17]. وقد بلور هوسرل نظرية وفق تصور مفاده « إن المعرفة الحقيقية للعالم تتأتى بمحاولة تحليل الأشياء كما هي خارج الذات وإنما بتحليل الذات نفسها وهي تقوم بالتعرف على العالم أي بتحليل الوعي وقد استبطن الأشياء فتحولت إلى ظواهر »[18]. يتبين من خلال ما سبق أن إدموند هوسرل قلب الكوجيطو الديكارتي فإذا كان الكوجيطو الديكارتي مصوغ وفق عبارة :أنا أفكر إذا أنا موجود، فإن الظاهراتية صاغت ذاتها المفكرة وفق العبارة الآتية أنا أفكر في شيء ما إذا أنا موجود.

سعى دريدا من خلال كتابه الصوت والظاهرة إلى قراءة الأثر الفلسفي الهوسرلي الذي يتساوق مع ما أتى به من طروحات عززت مشروعه التفكيكي، متمثلا في كتابه البحوث المنطقية الذي شمل موضوعات منها: العلامة والعلامات، رد القرينة، الدلالة وحديث النفس، العلامة ولمح البصر، الصوت الذي يحرس الصمت، البدل الأصل . ليشتغل من خلال هذا المعين على مسألة الصوت والكتابة ضمن محور فلسفة الاختلاف وجمع هذه الأفكار في كتابه الغراماتولوجيا (علم الكتابة)ليقوض سلطة الصوت ويقلب ثنائية (كلام، كتابة) إلى (كتابة، كلام).

ب– النيتشوية ونقد الميتافيزيقا :

قامت فلسفة نيتشه على تقويض الأسس التي ارتكز عليها الفكر الغربي الميتافيزيقي متخذة من الشك سبيلا في عدم التسليم بفكرة الحقيقة والوعي والأخلاق، إنها ثورة على مقولة الجوهر والثابت التي أسس لها الفيلسوف بارمنيدس، وارتماء نحو مقولة المتغير التي أسس لها الفيلسوف هيراقليطس يقول نيتشه في هذا الصدد:«غير أن هيراقليطس سيظل أبدا على صواب عندما جزم بأن الكينونة وهم بلا معنى —وحده العالم الظاهر هو الموجود، وما العالم الحقيقي سوى كذب نضيفه إليه» [19]. وبذلك فالمنحى الذي سلكه نيتشه في كتاباته الفلسفية قائم على الشك في الأطروحات القديمة القائمة على فكرة الأصل والجوهر، ومنهجه منهج جينيالوجي يعتمد على النقد التاريخي والبحث في الأصول التي تأسست عليها المفاهيم الفلسفية قصد نقدها وكشف أوهامها وتعرية تناقضاتها. ويرتكز هذا النقد على المفاهيم الأساسية للميتافيزيقا من «زاوية أنها تزييف صارخ ومقصود للوجود :فهي تحبك تصورات زائفة عن العالم، وعن الحياة، وعن طبيعة الواقع، وتضفي على هذا الواقع أوهام الذات واستيهاماتها .وترقى بقيم ومقولات العقل، والمنطق وبالمعايير الأخلاقية المحتقرة للحياة والوجود، إلى مرتبة محمولات جوهرية، وصفات ملازمة لطبيعة الوجود ذاته .والغاية من ذلك كله إخفاء صيرورة الواقع، والتعتيم على تناقضاته»[20].سعى النقد النيتشوي من هذا المنطلق إلى هدم جميع الماهيات ودحض اليقينيات، وأضحت الميتافيزيقا من خلاله ضربا من الهذيان وعالما سرابيا مليئا بالأشباح .

إن ديدن نيتشه من نقد الميتافيزيقا هو «نزع الهالات الأسطورية عن صورة الإنسان كما رسمتها قرون عديدة من "الأكاذيب والأضاليل"، وتبديد الأوهام حول طبيعة الوجود .تلك الأساطير الفلسفية التي ساهمت في رعاية وتثبيت أفكار إنكار الحياة، وقتل الذات، باسم قيم عليا مزعومة ...حولت الفلسفة إلى تاريخ لخضوع الإنسان»[21] .وهوما قاد نيتشه فيما بعد إلى إعلان مقولته الشهيرة موت الإله للإيحاء بالدلالة الجذرية التي يريد إعطاءها لمشروعه النقدي: «إسقاط جميع الأخرويات، وجميع العوالم الماورائية، ونسف جميع مثل والقيم العليا، وبصفة خاصة، تلك التي نشأت في فلسفة الأزمنة الحديثة، المنطق العقل، الموضوعية، الفكر العلمي، العلم ذاته، الثقافة الاشتراكية، الديمقراطية إلى آخر القائمة ولا شك أنها عبارة قابلة لأن تؤول، في السياق العام لفلسفة نيتشه، على أنها إعلان عن تصدع جميع الضمانات لإمكانية تعقّل العالم ولمعقوليته وعن تشظي جميع الحقائق وتداعي جميع الهويات»[22].نصل من خلال ذلك إلى فكرة مدماكها أن

نيتشه نسف كل حقيقة ثابتة، وأن كل الحقائق قابلة للتأويل، وبذلك تفقد هذه الحقائق جوهرها وتفقد صفاتها .

ثار نيتشه على الفلسفات القديمة القائمة على مقولتي الوعي والحضور وإعلائها مركزية الصوت والشفوية، ليؤسس خطابه الفلسفي على فكرة الكتابة والأثر، فالصورة الصوتية لا تدرك الشيء نفسه، وإنما تتمثله وتعكسه إلى خارج ذاتها، باعتبارها مجرد نسخ أو إثارة وتنبيه غير أصلي لذا فإن الصورة الصوتية غريبة عن ذات المتكلم حتى وإن كان قادرا على نقلها وإقناع الآخرين بها مما يعني أننا نفتقد للحقيقة ولا نعرف سوى آراء وتأويلات [23]. إن تمرد نيتشه ومن بعده دريدا على الفلسفات التي أعلت من سلطة الكلمة المحتكمة للعقل لم يأت صدفة، بل كان صادرا على وعي بأهمية الكتابة، ويبرر نيتشه ذلك بقوله: «مع صوت جهوري في الحنجرة، نكاد نكون عاجزين عن التفكير بأشياء دقيقة»[24].فالكتابة شيء مقدس بالنسبة لنيتشه تتيح إمكانية فتح التأويلات على عكس الكلمة التي تمارس حضورها فتحد من إمكانية التأويل.

جـ – الفلسفة الهيدغيرية ونسيان الوجود:

تمثل فلسفة هيدغر أسّا مرجعيا للنقد ما بعد البنيوي، وذلك من خلال الأسئلة التي أثارها حول الكينونة والزمان، منطلقا من فكرة أن الوجود أصبح في طي النسيان ؛هذه العبارة كانت إيذانا بميلاد فلسفة جديدة يتحول مركز الاهتمام الفلسفي فيها «من الإنسان والذات، عقلا أو وعيا أو إرادة إلى الوجود الذي أصبح في نظره نسيا منسيا ؛وإلى إحياء التساؤل الفلسفي الأساسي .وما هو ذلك التساؤل؟ إنه ذلك الذي يجدد طرح التساؤل عن معنى الوجود، وينفض عنه غبار النسيان، ويصرف نظر الفلسفة عن إشكالية الذات، وعن الأسئلة التقليدية لتلك الإشكالية :ماذا بإمكاني أن أعرف ؟ماذا يتوجب عليّ أن أفعل؟ وفي ماذا أستطيع أن آمل؟ وما هو الإنسان ...وذلك حتى تتفرغ وتنقطع إلى التأمل في حقيقة الوجود»[25].

انطلاقا من هذا التصور تحاول هذه الفلسفة تجوز الذات والذاتية التي ميزت التصورات الميتافيزيقية أما آليتها في ذلك تتجسد في آلية الهدم والتقويض «ويكون المقصود بكلمة Déstruction ..من خلال السياق الهيدغيري ككل، إحداث قطيعة مع ماضي الفلسفة، وتفكيك التراث الفلسفي السائد حتى نيتشه، ذلك التراث الذي يغرق في نسيان الوجود»[26].وما يمكن فهمه من النزعة التقويضية التي اتخذها هيدغر آلية لنقده الفلسفي محاولة إعادة قراءة أسس

التفكير الفلسفي من العصر اليوناني إلى نيتشه، هذا التفكير الذي زاد من علياء الذات الإنسانية وأغفل البحث في الوجود.

ويتساوق منحى التقويض الذي سلكه هيدغر مع ما أتى به دريدا في تفكيكيته، وقد صرح دريدا قائلا حول هذا التأثر «إن ديني لهيدغر هو من الكبر، بحيث أنه يصعب أن أقوم بجرده هنا، والتحدث عنه بمفردات تقويمية أو كمية، أوجز المسألة بالقول :أنه هو من قرع نواقيس نهاية الميتافيزيقا، وعلمنا ان نسلك معها سلوكا استراتيجيا يقوم على التموضع داخل الظاهرة وتوجيه ضربات متوالية لها من الداخل »[27]. ويمثل فكر هيدغر من هذا المنطلق إقرارا صريحا بنقد التمركز العقلي وفلسفة الحضور.

إن الحضور والمقول لا يمكن فهمه وفك شفراته إلا إذا حضر الغياب والمسكوت عنه وهذا ما اتفق فيه دريدا مع هيدغر « بمعنى أن اللغة وفي حالة معرفتها بهذا الوجود تصطدم بجدار التقاليد الذي رسخ عبر الزمن حتى أنه غيّب هذا الوجود، الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى تدمير هذه التقاليد من أجل استحضار الوجود المختفي»[28]. من خلال ما سبق ذكره أصبح للتفكيك عند هيدغر معنى أوسع من السابق يتجسد في تحرير الإنسان من أسر الأهداف والغايات التي تغذي الفكر الميتافيزيقي باستمرار وبعبارة مختصرة فإن فلسفة التفكيك وضعت حدا لكل بحث نظري عن مبادئ، وعن أسس للفعل البشري وعملت على زعزعة كل خطاب حول السياسة والأخلاق.

د- **الفلسفة الفرويدية والثورة على الوعي:**

قدم فرويد نتاجا فلسفيا ثريا في مشروعه التحليل النفسي، وتعتبر أفكاره حول اللاشعور ثالث إذلال لكبرياء البشرية، بعد كوبيرنيكوس وتشارلز داروين، كما أنه صُنّف ضمن ثالوث فلاسفة الشك والارتياب كارل ماركس وفريديريك نيتشه، وكان لأفكاره تأثير على المشروع الفكري الفلسفي والنقدي لدريدا، وذلك من خلال المنهج الذي سلكه في التحليل النفسي الذي قوض مقولات الفلسفة المثالية الكلاسيكية والحديثة، فكشف عن تقابلات كثيرة :الحياة والموت، العقل والجنون، والشعور والخيال والواقع، والشعور واللاشعور ؛هذه الثنائية التي انبنى عليها مشروعه الفلسفي، فلا يمكن في نظره فهم الواقع والنفس الإنسانية إلا من خلال هذه التقابلات

فالحضور لا يفهم إلا من خلال الغياب والشعور لا يتأسس إلا من خلال اللاشعور، وهو ما جعل دريدا يقول أن فرويد لا أحد حلل وقوض سلطة المبدأ الأرخوني أفضل مما قدمه[29].

إن ما قدمه فرويد حول فكرة تقويض سلطة الأب الأول المؤسس في نظره إلى دين واحد وأن جل الديانات التي ظهرت بعده ما هي إلا تكرار وإعادة إلى سلطة الأب الأول، أي تشكيل لنسخ مكررة لسابقتها، إن فكرة التكرار هذه استفاد من خلالها دريدا في تفكيكيته.

ثالثا: التفكيكية : المقولات المنهجية:

بعد عرض الخلفيات الفلسفية للتفكيكية عند جاك دريدا، قمين بنا البحث في المقولات التي شكلت العقد الناظم لتفكيكيته، والتي تميزت بالثراء والفرادة والاختلاف، إن المتتبع للمنجز النقدي الدريدي والمشخص لخرائط فلسفته يجد كتابة متمردة تحتشد فوقها الأضداد وتتواطؤ فيها النقائض، فاحتراز القارئ من كتاباته أمر محتم «فدريدا نفسه يحذر من تسطيح الأمور واختزال العبور، بل وجب التسلح بآليات والتحنّك باستراتيجيات ليسهل الولوج في مسالك النص الدريدي »[30] وما جعل نصوصه مميزة هو حفره في مباحث لم يتم التطرق إليها، ويمكن إجمال مقولاته في :

أ–الاختلاف(الإرجاء)Différence: يحتل هذا المفهوم نواة أساسية في تفكيكية دريدا، بل يمثل خيطا رابطا ضمن محور فلسفة الاختلاف التي أسس لها روادها جيل دولوز وجون فرانسوا ليوتار، فالاختلاف حسب دريدا «لا يرضى ولا يسعى إلى أن يتم الاعتراف به بوصفه نقيضا للهوية، لأن الهوية، والاختلاف بوصفه نقيضا لها، هما واحد في مفهوم دريدا، لأنهما معا من نتاج العقل ويحملان النوع العقلي ذاته، لذا فإن هناك (اختلافا) لهما ومعهما أيضا إن الاختلاف ليس آخر هوية، بل هو آخر العقل، المساوي بآخريته لكامل تاريخ حضور العقل وحجمه الواسع » [31]. فإذا كانت فلسفات الحضور تسعى إلى التركيب وراء التناقضات البارزة فإن« جدل فلسفات الاختلاف هو تناقض دون تركيب وبنيات متنافرة دون وحدة مفارقة ومتعالية توفق بينها؛ هنا بالضبط ينفصل أو ينشق اختلاف فلسفات الاختلاف على اختلاف النسق الهيجلي»[32].ويمكن حصر الدلالات التي يتوقف عليها مفهوم الاختلاف في:

* يحيل هذا المفهوم إلى حركة توليد الفوارق والاختلافات، و فعل توليد الفوارق يتم بواسطة الإرجاء والإمهال والتأجيل والتأخير والإحالة والرد والانعطاف

* يعكس هذا المفهوم تبلور الاختلاف بين الكينونة والكائن كما طرحه هيدغر، فإذا كانت الميتافيزيقا تقر أنه كان في البدء حضور فإن فكر الاختلاف يقول في البدء كان الاختلاف/ الإرجاء .

* يضع دريدا مفهوم الاختلاف/ الإرجاء مقابل مفهوم الاحتفاظ/ التجاوز عند هيجل، فإذا كان هناك تعريف للاختلاف، فإنه سيكون بالذات حد الاحتفاظ /التجاوز الهيغلي وإيقافه وتحطيمه أينما حل [33].

ب– الأثر (La trace): يرى دريدا أنه ليس هناك مفهوم في ذاته حاضر ممتلىء وإنما كل ما هناك ان المفهوم يدخل دائما في علاقة مع المفاهيم والدوال الأخرى .والاختلاف او حركة توليد الفوارق« يسمح لنا بتبيين قواعد اللغة، قواعد اللعبة النسقية للاختلاف، إن الاختلاف هو حركة اللعبة التي تنتج الاختلافات ؛تولد آثار الاختلافات غير أن أصل الاختلافات ليست آثارا متولدة عن ذات أو منحدرة عن جوهر، عن شيء بصفة عامة عن كائن حاضر في مكان ما وينفلت هو نفسه من مبدأ الإرجاء – الاختلاف»[34]. واستقى دريدا هذا مصطلح الأثر من ليفيناس، وهو تسمية جديدة للآثار المحكية.

إن نقض منطق الثنائيات دفع بدريدا إلى بناء منطق المتردد اللايقيني ليتردد المعنى أو المدلول، فالثنائيات الأسطورية مركز هامش، ميثوس لوغوس، حضور غياب والقائمة على مبدأ التماهي تجاوزتها حلقات الاختلاف، فإذا كانت حلقة المطابقة، تروم وجود مركز(حضور، لوغوس، وعي، نظام) يقصي الهامش (غياب، ميثوس، جنون، التبعثر)، فإنه يجعل الهامش مركزا سيرتد المركز إلى الهامش، فهو مركز ولا مركز لأنه هامش، وهو هامش ولا هامش لأنه مركز فهو في آن واحد مركز وهامش وفي اللحظة ذاتها لامركز ولا هامش[35]. إن الأثر الذي يتكلم عنه دريدا يتجسد في أنه لا وجود لأثر يحمل معناه في ذاته، إنه مكون مسبقا ضمن شبكة غير محددة من السياقات الممكنة «فالحاضر من حيث هو حاضر لا يوجد بالنسبة إلى الذات الدريدية الحاملة أصلا للآثار التي تجعل منها بالفعل نصا تعد هويته ووحدته امرا إشكاليا، حين يتم الإعلان عن الآخر فإنه يعرض في اختفاء الذات»[36]. وبهذا فإننا لا نستطيع –بمفهوم الأثر– الفصل بين الواقعي والمثالي وبين الحضور والغياب ويضحي النص بذلك جملة من التشابكات الدلالية والمجازية.

جـ – علم الكتابة (Grammatologie):إذا كان التقليد الفلسفي الغربي الميتافيزيقي قلل من شأن الكتابة واعتبرها أمرا ثانويا، وأعلى من مركزية الصوت وتقديس الدال الصوتي، وهمش كل ما هو خطي ومكتوب، فإن دريدا أعاد مركزية الكتابة إلى خرائط الفكر الفلسفي من خلال تفكيكاته وتنظيراته وتجاوز المعيقات الفكرية التي وقع فيها أسلافه، وأعاد النظر فيها ليس لاجتثاثها أو تجاوز منطلقاتها، وإنما بتفكيك حدودها المعرفية واستبدالها بالاختلاف واللعب بالمعاني، إن الثورة التي أحدثها دريدا تمثل « إعادة تثمين فكرة الكتابة والحرص على إبراز أهميتها، وعارض البنيويين القائلين باختزال الكتابة وتهميشها على حساب الصوت/المركز، ويشكك دريدا في أسبقية الكلام وإيلاءه كل هذا الاهتمام، إذ لا يمكن إظهار بعض الظواهر التواصلية من خلال الكلام، ولا تتخذ شكلا ظاهريا إلا من خلال الكتابة (...) فأزالت التفكيكية المركز وأزاحت المنطوق لتولي اهتماما بالكتابة والنص، وعليه يصبح النص نظاما بدون مركز، كما أزالت وهم تناقض الأضداد »[37].

إن الكتابة أفق رحب تفتح التأويلات، فبغياب الكاتب يغيب أيضا القارئ، فلا كاتب ولا قارئ أمام استقلاليتها إنها «ترسم على جسد النص تضاريس متصدعة، تنادي صدوعها بربط السطح بالعمق وتدعو شقوقها إلى الالتئام ...أو الكتابة شكل متفجر يصل الحضور بالغياب، وبراكين ثائرة وأصوات مدوية تصالح بين الهويات والغيريات، الكتابة فعل مؤجل يلحم الصدع ويداوي الجرح في خيط لا مرئي وشبحي، تائه ولا يقيني» [38].ومن هذا المنظور قلب دريدا ثنائية (كلام/ كتابة إلى كتابة/ كلام)، وانتقل من الحضور ؛حضور الدال الصوتي الذي ينتهي معه التأويل وتختزل معه المعاني إلى الغياب ؛غياب الكاتب والمتكلم الذي يفتح معه التأويل وتتناسل معه المعاني .

هـ– الانتشار أو التشتيت (Dissémination) : يعبر هذا المصطلح عن فكرة تفكيكية جوهرية تضاف إلى مصطلح الكتابة الذي قوض من خلاله دريدا مركزية الصوت، والمقصود به تناثر المعاني بالطريقة التي تصعب على القارئ الإمام بتضاريسها، وحاول فيه دريدا «أن يستثمر الشبه القائم بين المفردتين اليونانيتين semen (البذار أو النطفة) وsème (العلامة) ..يتموقع (الانتشار) في نطاق التأويل ضمن أحد ثلاثة أشكال تأويلية ؛يسميه ديكرو وشايفر: اللاقصدية أو ما يمكن كذلك ترجمته بالقصدية المضادة أو ضد القصدية l'anti-intentionalisme

»[39]. ويبقى هذا المصطلح من المصطلحات التي تحمل في كنفها ضبابية كبيرة، ومنهم من جمعه في هذا المفهوم الدال على« تشظي المعنى إلى عشرات الوحدات المصغرة وبالتالي تبعثره في جميع الاتجاهات وعدم إمكانية الإمساك به أو القبض عليه في نهاية المطاف»[40] لهذا فالنص سلسلة لامتناهية من المعاني الممكنة لا يمكن إخضاعها لأية سلطة؛ لا لسلطة الكاتب ولا لسلطة السياقات الخارجية.

خاتمة:

إن البحث في أطياف تفكيكية دريدا والغوص في خلفياتها وتحديد مقولاتها يبقى بحثا مفتوحا، والإحاطة بتضاريس وخرائط مفاهيمه لا تكتمل، ومكمن ذلك تعدد الخلفيات وتداخل المعارف التي نهل منها جاك دريدا ليؤسس لمشروعه الفلسفي والنقدي ويمكن إجمال نتائج بحثنا فيما يلي:

* مثّل مشروع دريدا الفلسفي والنقدي حيزا كبيرا ضمن محور فلسفة الاختلاف التي صاحبت فلسفة ما بعد الحداثة التي جمعت إلى جانب تفكيكية دريدا فلسفات جيل دولوز وليوتار وليفيناس.

* من الصعب تحديد مفهوم لمصطلح التفكيك، وقد صرح دريدا أنه لا يمكن وضع حد لهذا المصطلح لأن دلالاته تنافي ذلك وهو ما جعل كثيرا من النقاد يقفون موقف الانتقاد لتفكيكية دريدا، فقد سأله المسيري هل يمكن تفكيك التفكيك؟ وإذا لم تكن هناك إجابة لهذا التساؤل فإنه يتحول إلى مطلق لوغوس.

* ثارت تفكيكية دريدا ضد مقولات النسق الهيغلي التي سعت إلى التركيب وراء التناقضات البارزة فكسرت بذلك منطق الثنائيات الميتافيزيقي :مركز/هامش، دال/ مدلول.

* ينضوي العقد الناظم لمقولات التفكيك عند جاك دريدا ضمن ثنائية مركزية وهي ثنائية الحضور والغياب .

* فتحت تفكيكية دريدا آفاقا جديدة في التفكير الفلسفي وغيرت عن طريق مقولاتها المنبنية على الخلخلة والانتشار والتفكك قوالب التفكير الجامدة متسببة في نقض مركزية الفكر الغربي الميتافيزيقي القائمة على اليقينيات والوثوقيات.

هوامش

[1] M. Merleau-ponty ' Sens et non- sen / Paris Nagel. 1966. P 171s.

[2] عبد السلام المسدي: قاموس اللسانيات، الدار العربية للكتاب (تونس)،1984،دط، ص11.

[3] عزت جاد: المصطلح النقدي المعاصر بين المصريين و المغاربة، مجلة فصول(القاهرة)، ع 62،2003 ص70.

[4] هاشم صالح: حوار مع جاك دريدا، مجلة الفكر العربي المعاصر،بيروت، ع 54-55،جويلية-أوت 1988،ص108.

[5] محمد شوقي الزين :تأويلات وتفكيكات فصول في الفكر الغربي المعاصر، منشورات ضفاف(بيروت)، ط1،2015، ص207.

[6]المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[7] المرجع نفسه، ص 208.

[8] سارة كوفمان – روجي لابورت: مدخل إلى فلسفة جاك دريدا، تفكيك الميتافيزيقا واستحضار الأثر، تر:إدريس كثير وعزالدين الخطابي،إفريقيا الشرق (الدار البيضاء)،ط2،1994،ص 13.

[9]حسن حنفي: ما العولمة؟،دار الفكر المعاصر(بيروت) ط1،1999،ص279.

[10] جاك دريدا:استراتيجية التفكيك (نصوص حول الجامعة والسلطة والعنف والعقل والجنون والاختلاف والترجمة واللغة)، تر: عز الدين الخطابي، دار إفريقيا الشرق(بيروت)،د ط، 2013، ص05.

[11] جاك دريدا: الكتابة والاختلاف، تر: كاظم جهاد، دار توبقال للنشر(الدار البيضاء) 1988، ص 62.

[12]جاك دريدا:استراتيجية التفكيك (نصوص حول الجامعة والسلطة والعنف والعقل والجنون والاختلاف والترجمة واللغة)، تر: عز الدين الخطابي، ص 6.

[13]بشرى موسى صالح: نظرية التلقي أصول وتطبيقات، المركز الثقافي العربي(الدار البيضاء)، ط1، 2001، ص31.

[14]عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، مجلة عالم المعرفة،الكويت، ع232،أبريل1998، ص135 .

[15] محمد شوقي الزين :تأويلات وتفكيكات فصول في الفكر الغربي المعاصر،ص ص 211-212.

[16] سعيد عمري : الرواية من منظور نظرية التلقي، منشورات مشروع البحث النقدي ونظرية الترجمة (كلية الآداب ظهر المهراز فاس)، ط1، 2009 ص 25.

[17] محمد شوقي الزين:" الفينومينولوجيا وفن التأويل" مجلة فكر ونقد (الرباط)، ع 16،1999، ص72.

[18] ميجان الرويلي وسعد البازعي:دليل الناقد الادبي اضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحات نقد معاصر، المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء) ط1،2002.ص32

[19] فريديريك نيتشه :أفول الأصنام،تر:حسن بورقية وأحمد الناجي، دار إفريقيا الشرق(الدار البيضاء) ط1،1996،ص27.

[20] عبد الرزاق الدواي :موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر هيدغر، لفي ستروس، ميشال فوكو، دار الطليعة للطباعة والنشر(بيروت)، د ط، دت، ص 34.

[21] المرجع نفسه، ص 35.

[22] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[23] أمينة غصن :جاك دريدا في العقل، والكتابة، والختان،دار المدى للثقافة والنشر (دمشق)، ط1 2002،ص 46.

[24] فريديريك نيتشه: العلم الجذل، تر: سعاد حرب، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع (بيروت)، ط1،2001،ص 141.

[25] عبد الرزاق الدواي : مرجع سابق، ص42.

[26] المرجع نفسه، ص 43.

[27] جاك دريدا :الاستنطاق والتفكيك، تر: كاظم جهاد، مجلة الكرمل، ع17،1985،ص 57.

[28] بشير تاوريريت، سامية راجح :التفكيكية في الخطاب النقدي المعاصر دراسة في الاصول والملامح والإشكالات النظرية والتطبيقية، دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع (سوريا) ط1،2008،ص18.

[29] جاك دريدا :حمى الأرشيف الفرويدي، تر:عدنان حسن، دار الحوار للنشر والتوزيع (اللاذقية –سوريا) ط1،2003،ص 252.

[30] محمد بكاي :أرخبيلات ما بعد الحداثة رهانات الذات الإنسانية: من سطوة الانغلاق إلى قرار الانعتاق، دار الرافدين (لبنان)،ط1، 2017،ص 15.

[31] عادل عبد الله :التفكيكية إرادة الاختلاف وسلطة العقل، دار الحصاد للنشر والتوزيع والطباعة(دمشق)ط1، 2000،ص 18.

[32] محمد شوقي الزين :تأويلات وتفكيكات فصول في الفكر الغربي المعاصر، ص ص 212-213.

[33] محمد الشيخ: ما معنى التفكيك، دار بدائل للطبع والنشر والتوزيع (الجيزة،مصر)،ط1،2014،ص ص 120-121.

[34] المرجع نفسه، ص 124.

[35] محمد شوقي الزين :تأويلات وتفكيكات فصول في الفكر الغربي المعاصر، ص ص 208-209.

[36] محمد الشيخ: ما معنى التفكيك، ص 124.

[37] محمد بكاي، أرخبيلات ما بعد الحداثة رهانات الذات الإنسانية، ص 26.

[38] المرجع نفسه، ص 27.

[39] يوسف وغليسي: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، منشورات الاختلاف(الجزائر) ط1،2008، ص 378.

[40] هاشم صالح :التأويل / التفكيك (مدخل ولقاء مع جاك دريدا) مجلة الفكر العربي المعاصر(بيروت)، ع 54-55، أوت 1988،ص104.